



القاعدة الحادية والعشرون

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾

هذه قاعدة من القواعد المحكمة في أبواب التعامل مع الخالق ﷻ والتعامل خلقه، هي قاعدة تمثل سفينة من سفن النجاة، وركناً من أركان الحياة الاجتماعية، وهي - لمن اهتدى بهديها - علامة خير، وبرهان على سمو الهمة، ودليل على كمال العقل.

هذه القاعدة المحكمة جاءت تعقيباً على قصة جهاد طويل، وبلاء كبير في خدمة الدين، والذب عن حياضه، قام به النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم، وذلك في خاتمة سورة التوبة - التي هي من آخر ما نزل عليه ﷺ - قال تعالى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ١١٧ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ١١٨﴾

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٧ - ١١٩].

والرسالة التي تحملها هذه القاعدة التالية: أن هؤلاء الذين تاب الله عليهم - النبي ﷺ ومن معه، والثلاثة الذين خلفوا - هم أئمة الصادقين؛ فاقتدوا بهم.

وأنت إذا تأملت مجيء هذه القاعدة القرآنية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ بعد هذه الآيات، أدركت أن الصدق أعم من أن يختصر في الصدق في الأقوال! بل هو الصدق في الأقوال والأفعال والأحوال، التي كان يتمثلها نبينا ﷺ في حياته كلها، قبل البعثة وبعدها.

ولما كان النبي ﷺ صادق اللهجة، عف اللسان، أميناً وفياً حافظاً للعهود قبل بعثته؛ عرف بالصادق الأمين، وكان ذلك سبباً في إسلام بعض عقلاء المشركين، الذين كان قائلهم يقول: لم يكن هذا الرجل يكذب على الناس ثم يكذب على الله!! كثيرٌ من الناس حينما يسمع هذه القاعدة القرآنية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ لا ينصرف ذهنه إلا للصدق في الأقوال، وهذا في الحقيقة تقصير في فهم هذه القاعدة، وإلا لو تأمل الإنسان سياقها لعلم أنها تشمل جميع الأقوال والأفعال والأحوال! كما تقدم.

إن للصدق آثاراً حميدة، وعوائد جليلة؛ وهو دليل على رجحان العقل، وحسن السيرة، ونقاء السيرة.

ولو لم يكن للصدق من آثار إلا سلامته من رجس الكذب، ومخالفة المروءة، والتشبه بالمنافقين! فضلاً عما يكسبه الصدق من عزة، وشجاعة، تورثه كرامة، وعزة نفس، وهيبةً جناب، ومن تأمل في قصة الثلاثة الذين خلفوا أدرك حلاوة الصدق ومرارة الكذب ولو بعد حين.

ومن تأمل في الآيات الواردة في مدح الصدق والثناء على أهله وجدَّ عجباً عجباً!

وحسبنا هنا أن نشير إلى جملة من الآثار التي دلَّ عليها القرآن للصدق وأهله في الدنيا والآخرة:

١- فالصادق سائر على درب الأنبياء والرسل -عليهم الصلاة والسلام- الذين أنشئ الله عليهم في غير ما آية بالصدق في الوعد والحديث.

٢- والصادق معانٍ ومنصورٌ، ويسخر الله له من يدافع عنه من حيث لا يتوقع، بل قد يكون المدافع خصماً من خصومه، تأمل في قول امرأة العزيز: ﴿قَالَتْ أَمَرْتُ الْعَزِيزَ الْأَنْحَصَ الْحَقُّ أَنَّا رَوْدُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١].

والصادق يسير في طريق يهدي إلى الجنة، ألم يقل النبي ﷺ: «عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً»؟^(١)، وقد قال الله ﷻ -مبيناً صفات أهل الجنة-: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

وأهل الصدق هم الناجون يوم العرض الأكبر على ربهم، كما قال تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].

والصادقون هم أهل مغفرة الله وما أعده لهم من الأجر والثواب العظيم، قال ﷻ: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنِينَ وَالْقَنِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ...﴾، إلى قوله: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وبعد هذا؛ فإن من المحزن والمؤلم أن يرى المسلم الخرق الصارخ -في واقع المسلمين- لما دلّت عليه هذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾!

(١) البخاري ح (٥٧٤٣)، ومسلم ح (٢٦٠٧) واللفظ له.

فكم هم الذين يكذبون في حديثهم؟ وكم هم الذين يخلفون مواعيدهم؟ وكم هم أولئك الذين ينتقضون عهودهم؟

أليس في المسلمين من يتعاطى الرشوة، ويخون بذلك ما أوّمن عليه من أداء وظيفته؟ أليس في المسلمين من لا يبالي بتزوير العقود، والأوراق الرسمية؟ وغير ذلك من صور التزوير؟

لقد شوّه هؤلاء - وللأسف - بأفعالهم وجه الإسلام المشرق، الذي ما قام إلا على الصدق!

وإنك لتعجب من مسلم يقرأ هذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصّٰدِقِينَ﴾! ومع ذلك يارس كثير من المسلمين الكذب مع وفرة النصوص الشرعية التي تأمر بالصدق وتنهى عن الكذب!

ليت هؤلاء يتأملون هذا الموقف، الذي حدّث به أبو سفيان رضي الله عنه قبل أن يسلم، حينما كان في أرض الشام، إذ جيء بكتاب من رسول الله ﷺ إلى هرقل، فقال هرقل: هل ها هنا أحد من قوم هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ قالوا: نعم، قال: فدعيت في نفر من قريش، فدخلنا على هرقل، فأجلسنا بين يديه، فقال: أيكم أقرب نسبًا من هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقلت: أنا، فأجلسوني بين يديه، وأجلسوا أصحابي خلفي، ثم دعا بترجمانه، فقال له: قل لهم: إني سائل هذا عن الرجل الذي يزعم أنه نبي، فإن كذبنني فكذبوه، فقال أبو سفيان: وأيم الله لولا مخافة أن يؤثر علي الكذب لكذبت^(١).

فتأمل - أيها المؤمن - كيف حاذر هذا الرجل الذي كان مشرّكًا يومئذ من الكذب؛ لأنه يراه عارًا وُسْبَةً لا تليق بالرجل الذي يعرف جلالة الصدق، وقبح الكذب؟! إنها

(١) البخاري ح (٧)، ومسلم ح (٧٤).

مروءة العربي، الذي كان يعد الكذب من أقبح الأخلاق!

ولهذا لما سئل ابن معين رَحِمَهُ اللهُ عن الإمام الشافعي قال: دعنا، والله لو كان الكذب حلالاً لمنعته مروءته أن يكذب! ^(١).

وجاء في ترجمة الحافظ إسحاق بن الحسن الحربي (ت: ٢٨٤) أن الإمام إبراهيم الحربي سئل عنه، فقال: ثقة، ولو أن الكذب حلال ما كذب إسحاق! ^(٢).

وكان إبراهيم الحربي (ت: ٢٨٥) يقول في الإمام المحدث هارون الحمالي: لو أن الكذب حلال لتركه هارون تنزهاً ^(٣).

ولله درُّ الإمام الأوزاعي حيث قال: والله لو نادى منادٍ من السماء أن الكذب حلال ما كذبت!

فأين من هذا أولئك الذين استمرؤوا الكذب؟! بل وامتهنوه، ولم يكتفوا بهذا بل روجوا شيئاً من عادات الكفار في الكذب، كما هو الحال فيما يسمى بكذبة إبريل! ويزعم بعضهم أن تلك كذبة بيضاء! وما علموا أن الكذب كله أسود! إلا ما استثناه الشرع المطهر.

ويقال: لو لم يكن من خسارة يجنيها هؤلاء الذين يكذبون إلا أنهم يتخلفون بكذبهم هذا عن ركب المؤمنين الصادقين، الذين عناهم الله بهذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ لكفتهم رادعاً.

ما أحرانا معشر الآباء والمربين، أن نربي أجيالنا على هذا الخلق العظيم، وعلى كراهة الكذب، وأن نكون لهم قدوات حية يرونها بأعينهم.

(١) لسان الميزان: (٤١٦/٥).

(٢) تاريخ بغداد: (٣٨٢/٦).

(٣) تاريخ بغداد: (٢٢/١٤) وفي النص خللٌ صُحِّح من تذكرة الحفاظ: (٤٧٨/٢).

يقول الأستاذ الأديب الكبير محمد كرد علي:

«لو عَمَدْنَا إِلَى الصَّدَقِ نَجْعَلُهُ شِعَارَنَا الْبَاطِنَ وَالظَّاهِرَ فِي عَامَةِ أَحْوَالِنَا؛ لَوْ فَرْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَعَلَى مَنْ يَحْتَفُونَ بِنَا وَعَلَى الْقَائِمِينَ بِالْأَمْرِ فِينَا أَوْقَاتًا وَأَمْوَالًا وَلِغَوَا وَبَاطِلًا، وَلِعَشْنَا وَأَبْنَاءُنَا سَعْدَاءَ لَا نَقْلُقُ وَنَرَوِّعُ، مَمْتَعِينَ بِمَا نَجْنِي، مَبَارِكًا لَنَا فِيمَا نَأْخُذُ وَنُعْطِي، وَلِعَشْنَا فِي ظِلِّ الشَّرَفِ، وَتَذُوقِنَا مَعْنَى الْإِنْسَانِيَةِ، وَنَعْمُنَا بِالقَنَاعَةِ، وَعَمَّنا الرِّضَى»^(١).

انتهى، والحمد لله رب العالمين.



(١) أقوالنا وأفعالنا (قولنا في الصدق).



القاعدة الثانية والعشرون

﴿إِنَّهُ، مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ
أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾

هذه قاعدة من القواعد المحكمة في أبواب التعامل مع الخالق ﷻ والتعامل مع خلقه، هي قاعدة وملاذ لمن تُواجه أعمالهم بعدم التقدير.

وهذه القاعدة جاءت في قصة يوسف عليه الصلاة والسلام، وذلك حين دخل عليه إخوته فقالوا: ﴿يَتَأْتِيهَا الْعَزِيزُ مَسْنًا وَأَهْلُنَا الضُّرَّ وَجِثْنَا بِضَعَةٍ مُزَجَّةٍ فَأَوْفٍ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ (٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمُ يُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَيْ نَكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ، مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿

[يوسف: ٨٨-٩٠]، ما هي التقوى؟! وما هو الصبر؟

ما أكثر ما نحفظ تعريف التقوى، بل قد يحفظ بعضنا عدة تعاريف لها وللصبر، ويحفظ تقسيات الصبر، ثم يفشل أحدها في أول اختبار الصبر، أو يقع منه تقصير ظاهر في تطبيق هذه المعاني الشرعية كما ينبغي عند وجود المتقضي لها.

ولست أعني بذلك العصمة من الذنب، فذلك غير مراد قطعاً، وإنما أقصد

أننا نخفق أحيانًا -إلا من رحم الله- في تحقيق التقوى أو الصبر إذا جد الجد، وجاء موجبها.

كلنا يحفظ أن التقوى هي فعل أوامر الله، واجتناب نواهيه.

وكلنا يدرك أن ذلك يحتاج إلى صبر ومصابرة، وحبس للنفس على مراد الله ورسوله، ولكن الشأن في النجاح في تطبيق هذين المعنيين العظيمين في أوانهما.

ولنا أن نتساءل هنا عن سر الجمع بين التقوى والصبر في هذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾؟

والجواب: أن ذلك -والله أعلم- لأن أثر التقوى في فعل المأمور، وأما الصبر فأثره في الأغلب في ترك المنهي^(١).

* من تطبيقات هذه القاعدة:

إن لهذه القاعدة القرآنية الجليلة تطبيقات كثيرة في حياة المؤمن، بل وفيما يقرأه المسلم في كتاب ربه، ومن ذلك:

١ - ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية -تعليقًا على هذه القاعدة في سورة يوسف عليه الصلاة والسلام-:

«ثم إن يوسف ابتلي بعد أن ظلمَ بمن يدعوه إلى الفاحشة، ويرأوده عليها، ويستعين عليه بمن يعينه على ذلك، فاستعصم واختار السجن على الفاحشة، وآثر عذاب الدنيا على سخط الله، فكان مظلومًا من جهة من أحبه لهواه، وغرضه الفاسد...»، ثم تكلم على محنته مع إخوته، وكيف أنه تعرض لنوعين من الأذى فقابلهما بالتقوى والصبر:

(١) جامع الرسائل لابن تيمية: (٣٨/١).

أما الأذى الأول: فهو ظلم إخوته له، الذين أخرجوه من انطلاق الحرية إلى رق العبودية الباطلة بغير اختياره.

وأما الأذى الثاني: فهو ما تعرض له من ظلم امرأة العزيز، التي أَلجأته إلى أن اختار أن يكون محبوبًا مسجونًا باختياره.

ثم فرق الشيخ: بين صبره على أذى إخوته، وصبره على أذى امرأة العزيز، وقرر أن صبره على الأذى الذي لحقه من امرأة العزيز أعظم من صبره على أذى إخوته؛ لأن صبره على أذى إخوته كان من باب الصبر على المصائب التي لا يكاد يسلم منها أحد، وأما صبره على أذى امرأة العزيز فكان اختياريًا، واقترب به التقوى؛ ولهذا قال يوسف: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقْ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

ثم قال شيخ الإسلام - مبيِّنًا اطراد هذه القاعدة القرآنية -:

«وهكذا إذا أُوذي المؤمن على إيمانه، وطلب منه الكفر أو الفسوق أو العصيان - وإن لم يفعل أُوذي وعوقب - اختار الأذى والعقوبة على فراق دينه: إما الحبس وإما الخروج من بلده، كما جرى للمهاجرين حين اختاروا فراق الأوطان على فراق الدين، وكانوا يعذبون ويؤذون.

وقد أُوذي النبي ﷺ بأنواع من الأذى فكان يصبر عليها صبرًا اختياريًا، فإنه إنما يُؤذى لئلا يفعل ما يفعله باختياره، وكان هذا أعظم من صبر يوسف؛ لأن يوسف إنما طلب منه الفاحشة، وإنما عوقب - إذ لم يفعل - بالحبس، والنبي ﷺ وأصحابه طلب منهم الكفر، وإذا لم يفعلوا طلبت عقوبتهم بالقتل فما دونه، وأهون ما عوقب به الحبس...» إلى أن قال:

«فكان ما حصل للمؤمنين من الأذى والمصائب هو باختيارهم طاعة الله ورسوله لم يكن من المصائب السماوية التي تجري بدون اختيار العبد، من جنس حبس يوسف،

لا من جنس التفريق بينه وبين أبيه، وهذا أشرف النوعين، وأهلها أعظم بدرجة، وإن كان صاحب المصائب يثاب على صبره ورضاه، وتكفر عنه الذنوب بمصائبه»^(١).

٢- ومن تطبيقات هذه القاعدة القرآنية: تربية النفس على التقوى والصبر على ما يسمى بعشق الصور، الذي أفسد قلوب فئام من الناس، بسبب تعلق قلوبهم بتلك الصور، سواء كانت صوراً حية، أم ثابتة.

ولقد عظمت الفتنة بهذه الصور في عصرنا هذا، الذي لم تعرف الدنيا عصراً أعظم منه في انتشار الصورة، والاحتراف في تصويرها، والتفنن في تغيير ملامحها، وتيسر الوصول إلى الصور المحرمة منها وغير المحرمة، عن طريق الإنترنت، والجوال، وغيرها من الوسائل.

فعلى المؤمن الناصح لنفسه أن يتقي ربه، وأن يجاهد نفسه في البعد عن هذا المرتع الوخيم - أعني تقلب النظر في الصور المحرمة - وأن يوقن أن ما يقذفه الله في قلبه من الإيمان والنور والراحة والطمأنينة سيكون أضعاف ما يجده من لذة عابرة بتلك الصور، ومن أراد أن يعرف مفاسد هذا الباب - أعني عشق الصور - فليقرأ أواخر كتاب العلامة ابن القيم: «الجواب الكافي» فقد أجاد وأفاد.

وليتذكر المبتلى بالعشق «أنه إذا عف عن المحرمات نظراً وقولاً وعملاً، وكنتم ذلك، فلم يتكلم به حتى لا يكون في ذلك كلامٌ محرم: إما شكوى إلى المخلوق، وإما إظهار فاحشة، وإما نوع طلبٍ للمعشوق، وصبر على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى ما في قلبه من ألم العشق، كما يصبر المصاب عن ألم المصيبة؛ فإن هذا يكون ممن اتقى الله وصبر، و﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾»^(٢).

(١) مجموع الفتاوى: (١٠ / ١٢١ - ١٢٣) بتصرف واختصار.

(٢) مجموع الفتاوى: (١٠ / ١٣٣) بتصرف واختصار.

٣- ومن تطبيقات هذه القاعدة القرآنية العظيمة: أن الإنسان قد يبتلى بحُساد يحسدونه على ما آتاه الله من فضله، وقد يجد من آثار هذا الحسد ألواناً من الأذى القولي أو الفعلي، كما وقع لأحد ابني آدم حين حسد أخاه؛ لأن الله تقبل قربانه ولم يتقبل قربان أخيه، وكما وقع ليوسف مع إخوته، وقد يقع هذا من المرأة مع زوجها، أو من الزميل مع زميله في العمل.

وهذا النوع من الحسد، يقع غالباً بين المتشاركين في رئاسة أو مال أو عمل إذا أخذ بعضهم قسطاً من ذلك وفات الآخر؛ ويكون بين النظراء؛ لكرهية أحدهما أن يفضل الآخر عليه^(١).

فعلى من ابتلي بذلك أن يتذكر هذه القاعدة القرآنية: ﴿إِنَّهُ، مَنْ يَتَّقْ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾، وليتذكر أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾.

٤- ومن تطبيقات هذه القاعدة القرآنية العظيمة: ما تكرر الحديث عنه في سورة آل عمران في ثلاثة مواضع، كلها جاءت بلفظ: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾.

الأول والثاني منهما: في ثنايا الحديث عن غزوة أحد، يقول ﷺ: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ [آل عمران: ١٢٠].

والثاني: في قوله ﷺ: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ ءَالَفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ ءَالَفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤ - ١٢٥].

والموضع الثالث: في أواخر آل عمران - في سياق الحديث عن شيء من المنهج القرآني في التعامل مع أذى الأعداء من المشركين وأهل الكتاب - فقال ﷺ:

(١) ينظر: مجموع الفتاوى (١٠ / ١٢٥ - ١٢٦).

﴿تُبَلَّوْا فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلِتَسْمَعُوا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ
قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ
عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].





القاعدة الثالثة والعشرون

﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾

وهذه القاعدة القرآنية جاءت ضمن سياق الحديث عن عادة من عادات أهل الجاهلية، الذين إذا أحرموا، لم يدخلوا البيوت من أبوابها، تعبداً بذلك، وظناً أنه بر، فأخبر الله أنه ليس ببر؛ لأن الله تعالى، لم يشرعه لهم، كما ثبت سبب هذا النزول في الصحيحين من حديث البراء رضي الله عنه.

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَىٰ وَاتُّوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩].

* من تطبيقات هذه القاعدة:

ولئن كان سبب النزول الذي عالج ذلك الخطأ من أجلى وأظهر الصور التي عاجلتها هذه القاعدة، فإن ثمة تطبيقات أخرى واسعة لهذه القاعدة القرآنية الجليلة ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾، تظهر لمن تتبع كلام العلماء عنها، أو في تطبيقاتهم العملية لها، ومن ذلك:

١ - عبادة الله تعالى، فإنها الطريق الموصل إلى الله ﷻ، ومن أراد أن يصل إلى الله،

فعليه أن يسلك الطريق الموصل إليه ﷺ، ولا يكون ذلك إلا بواسطة الطريق الذي سنه رسول الله ﷺ.

يقول العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «فالوصول إلى الله وإلى رضوانه بدون محال، وطلب الهدى من غيره هو عين الضلال، وكيف يوصل إلى الله من غير الطريق التي جعلها هو سبحانه موصلة إليه، ودالة لمن سلك فيها عليه! بعث رسوله بها مناديا، وأقامه على أعلامها داعيا، وإليها هاديا، فالباب عن السالك في غيرها مسدود، وهو عن طريق هداه وسعاده مصدود، بل كلما ازداد كدحًا واجتهادًا: ازداد من الله طردًا وإبعادًا»^(١).

ويؤكد ذلك العلامة السعدي رَحِمَهُ اللهُ -في تعليقه على هذه القاعدة التي نحن بصدد الحديث عنها- فيقول: «وكل من تعبد بعبادة لم يشرعها الله ولا رسوله، فهو متعبد ببدعة، وأمرهم أن يأتوا البيوت من أبوابها لما فيه من السهولة عليهم، التي هي قاعدة من قواعد الشرع»^(٢).

٢- ومن تطبيقات هذه القاعدة، أنه:

«يؤخذ من عمومها اللفظي والمعنوي أن كل مطلوب من المطالب المهمة ينبغي أن يؤتى من بابه، وهو أقرب طريق ووسيلة يتوصل بها إليه، وذلك يقتضي معرفة الأسباب والوسائل معرفة تامة؛ ليسلك الأحسن منها والأقرب والأسهل، والأقرب نجاحًا، لا فرق بين الأمور العلمية والعملية، ولا بين الأمور الدينية والدنيوية، ولا بين الأمور المتعدية والقاصرة، وهذا من الحكمة»^(٣).

(١) مقدمة كتابه «تهذيب السنن»: (٣/١).

(٢) تفسير السعدي (٨٨)، وقد نبه على اطراد هذه القاعدة: شيخنا محمد العثيمين رَحِمَهُ اللهُ في شرحه على البخاري.

(٣) تفسير اللطيف المنان: (ص ٤٥).

٣- ومن تطبيقات هذه القاعدة:

إغلاقها لباب الحيل على الأحكام الشرعية، إلا فيما أذن فيه الشرع؛ ذلك أن المتحايل على الشريعة لم يأت الأمر من بابه، فخالف بذلك ما دلت عليه هذه القاعدة المحكمة.

يقول ابن القيم رحمته الله - مبيناً شناعة فعل هؤلاء المتحايلين، الذين تفتنوا في هذا الباب -:

«فاستبيحت بحيلهم الفروج، وأخذت بها الأموال من أربابها فأعطيت لغير أهلها، وعطلت بها الواجبات، وضيعت بها الحقوق، وعجّت الفروج والأموال والحقوق إلى ربها عجيجاً، وضجت مما حل بها إليه ضجيجاً، ولا يختلف المسلمون أن تعليم هذه الحيل حرام، والإفتاء بها حرام، والشهادة على مضمونها حرام، والحكم بها مع العلم بحالها حرام»^(١).

فإذا تبين ذلك؛ فقارن: كم هم الذين وقعوا في هذا المرتع الوخيم ممن نصبوا أنفسهم للإفتاء في بعض المنابر الإعلامية، أو في بعض المواقع، وساعدتهم على ذلك تراكض كثير من الناس في هذا الباب؟! وأدنى نظرة في الواقع، تبين أن الأمر جلل، والله المستعان.

٤- ومن تطبيقات هذه القاعدة القرآنية:

في باب طلب العلم شرعياً كان أم غير شرعي، وكذلك في طلب الرزق، فإن «كل من سلك طريقاً وعمل عملاً، وأتاه من أبوابه وطرقه الموصلة إليه، فلا بد أن يفلح وينجح ويصل به إلى غايته، كما قال تعالى: ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩]، وكلما عظم المطلوب تأكد هذا الأمر، وتعين البحث التام عن أمثل

(١) إعلام الموقعين: (٣ / ٣٧٢).

وأقوم الطرق الموصلة إليه»^(١).

وما أجمل ما قاله قيس بن الخطيم:

إذا ما أتيت العزّ من غير بابه ضللت، وإن تقصد من الباب تهتد^(٢)

٥- ومن تطبيقات هذه القاعدة القرآنية: هو الحديث مع الناس.

فإن الآية ترشد إلى أن المؤمن عليه أن يسلك الطريقة المناسبة في الحديث، فيعرف الموضوع المناسب الذي يحسن طرقه، والوقت الملائم، ويعرف طبيعة الشخص أو الناس الذين يتحدث إليهم، فإن لكل مقام مقالًا، ولكل مجال جدالًا، ولكل حادثة مقامًا.

وعلى هذا فإذا أراد الإنسان أن يخاطب شخصًا كبير المنزل في العلم أو الشرف، فلا يليق أن يخاطبه بما يخاطب سائر الناس؛ والحكمة في هذا هي المدار، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا.

٦- ومن تطبيقات هذه القاعدة القرآنية:

ما أشار إليه ابن الجوزي في كتابه الماتع «صيد الخاطر» حيث يقول:

«شكالي رجل من بغضه لزوجته ثم قال: ما أقدر على فراقها لأمر: منها كثرة دينها علي، وصبري قليل، ولا أكاد أسلم من فلتات لساني في الشكوى، وفي كلمات تعلم بغضي لها.

فقلت له: هذا لا ينفع وإنما تؤتى البيوت من أبوابها، فينبغي أن تخلو بنفسك، فتعلم أنها إنما سلطت عليك بذنوبك، فتبالغ في الاعتذار والتوبة، فأما الضجر والأذى لها فما ينفع، كما قال الحسن البصري عن الحجاج بن يوسف: عقوبة من الله لكم، فلا

(١) القواعد الحسان لتفسير القرآن (ص: ٩) للعلامة: السعدي رحمه الله.

(٢) جمهرة الأمثال للعسكري: (٨٩).

تقابلوا عقوبته بالسيف، وقابلوها بالاستغفار.

واعلم أنك في مقام مبتلى، ولك أجر بالصبر وعسى أن تكرهوا شيئاً، وهو خير لكم، فعامل الله سبحانه بالصبر على ما قضى، واسأله الفرج، فإذا جمعت بين الاستغفار وبين التوبة من الذنوب، والصبر على القضاء، وسؤال الفرج، حصلت ثلاثة فنون من العبادة تثاب على كل منها، ولا تُضَيِّع الزمان بشيء لا ينفع، ولا تحتل ظاناً منك أنك تدفع ما قدر... وأما أذاك للمرأة فلا وجه له؛ لأنها مسلطة فليكن شغلك بغير هذا.

وقد روي عن بعض السلف أن رجلاً شتمه فوضع خده على الأرض وقال: اللهم اغفر لي الذنب الذي سَلَطْتَ هذا به علي^(١) انتهى كلام ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ.

والغرض الذي أردتُ منه ذكر هذه القصة: أن هذا الإمام الواعظ استخدم هذه القاعدة القرآنية ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ في علاج مشكلة هذا الرجل الاجتماعية، وما أكثر هذا النوع من المشاكل، لكن ما أقل من يستعمل قواعد القرآن، وهداياته في علاج مشاكل الناس الاجتماعية، إما تقصيراً في فهم هداياته، أو قصوراً في ذلك، والواجب علينا أن ننطلق في إصلاح مشاكلنا كلها مهما تنوعت من كتاب ربنا، وسنة نبينا ﷺ، وأن نعتقد ذلك يقيناً؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ في كل شيء: في أمر العقائد، وأحكام الحلال والحرام، والقضايا الاجتماعية، والاقتصادية والسياسية، ولكن الشأن فينا نحن، وفي تقصيرنا في طلب حل مشاكلنا من كتاب ربنا تعالى، نسأل الله تعالى أن يعيننا على فهم كتابه، والاهتداء بهديه، والاستنارة بنوره.



(١) صيد الخاطر (٣٩٩-٤٠٠) ط: دار الكتب العلمية.



قواعد قرآنية

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة



القاعدة الرابعة والعشرون

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾

هذه القاعدة جاءت في ختام سورة العنكبوت، والتي افتتحت بقوله تعالى:
﴿الْعنكبوت: ١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ [العنكبوت: ١ - ٣].

وكان ختام سورة العنكبوت بهذه القاعدة القرآنية: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا
لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ هو جواب عن التساؤل الذي قد يطرحه المؤمن -وهو يقرأ صدر
سورة العنكبوت، والتي تقرّر حقيقة شرعية وسنة إلهية- في طريق الدعوة إلى الله
تعالى، وذلك السؤال هو: ما المخرج من تلك الفتن التي حدثتنا عنها أول سورة
العنكبوت؟! فيأتي الجواب في آخر السورة، في هذه القاعدة القرآنية المحكمة:
﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ فلا بد من الجهاد -بمعناه العام- ولا بد من
الإخلاص، عندها تأتي الهداية، ويتحقق التوفيق بإذن الله.

ولا بد لكل من أراد أن يسلك طريقاً أن يتصور صعوباته؛ ليكون على بينة من
أمره، وهكذا هو طريق الدعوة إلى الله، فلم ولن يكون مفروشاً بالورود والرياحين،
بل هو طريق «تعب فيه آدم، وناح لأجله نوح، ورمى في النار الخليل، وأضجع للذبح

إسماعيل، وبيع يوسف بثمن بخس، ولبت في السجن بضع سنين»^(١).

لأن «الإيمان ليس كلمة تقال إنما هو حقيقة ذات تكاليف، وأمانة ذات أعباء، وجهاد يحتاج إلى صبر، وجهد يحتاج إلى احتمال، فلا يكفي أن يقول الناس: آمنا! وهم لا يتركون لهذه الدعوى، حتى يتعرضوا للفتنة فيثبتوا عليها ويخرجوا منها صافية عناصرهم خالصة قلوبهم، كما تفتن النار الذهب لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به، وهذا هو أصل الكلمة اللغوي، وله دلالة وظله وإيحائه، وكذلك تصنع الفتنة بالقلوب»^(٢).

«فيا من نصبت نفسك للدعوة، وأقمت نفسك مقام الرسل الدعاة الهداة تحمّل كل ما يلاقيك من المحن بقلب ثابت، وجأش رابط، ولا ترزعزعتك الكروب؛ فإنها مربية الرجال، ومهذبة الأخلاق، ومكوّنة النفوس.

وإن رجلاً لم تعرّكه الحوادث، ولم تجربّه البلايا لا يكون رجل إصلاح ولا داعي خلقٍ إلى حقٍّ؛ فوطّن النفس على تحمّل المكروه، وابذل كل ما تستطيع من قوة ومال يهدك الله طريقاً رشداً، ويصلح بك جماعات بل أمّا ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٣).

وإذا تبينت صلة هذه القاعدة القرآنية المذكورة في آخر سورة العنكبوت: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ - بأول السورة، فإن دلالات هذه القاعدة في ميدان الدعوة كبيرة ومتسعة جداً، وهي تدل بوضوح على أن من رام الهداية والتوفيق

(١) الفوائد: (ص ٤٢).

(٢) في ظلال القرآن: (٥/ ٢٧٢٠) ط: الشروق.

(٣) الكلمة للمنفلوطي، نقلاً عن «مقالات لكبار كتاب العربية» د. محمد الحمد وفقه الله (١/ ٢١٣).

-وهو يسير في طريق الدعوة- فليحقق ذينك الأصلين الكبيرين اللذين دلت عليهما هذه القاعدة:

١- أما الأصل الأول: فهو بذل الجهد والمجاهدة في الوصول إلى الغرض الذي ينشده الإنسان في طريقه إلى الله تعالى.

٢- والأصل الثاني هو: الإخلاص لله، لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ فليس جهادهم من أجل نصرة ذات، ولا جماعة على حساب أخرى، وليس من أجل لعاعة من الدنيا، أو ركض وراء كرسي أو منصب، بل هو جهاد في ذات الله تعالى. وإنما نُبِّه على هذا الأصل -وهو الإخلاص- مع كونه شرطاً في كل عمل، فإن السر -والله أعلم- لأن من الدعاة من قد يدفعه القيام بالدعوة، أو بأي عمل نافع، الرغبة في الشهرة التي نالها الداعية الفلاني، أو يدفعه نيل ثراء ناله المتحدث الفلاني.. فجاء التنبيه على هذا الأصل الأصيل في كل عمل صالح.

وثمة سرٌّ آخر -والله أعلم- في التنبيه على هذا الأصل، وهو: أن الإنسان قد يبدأ مخلصاً، ثم لا يلبث أن تنطفئ حرارة الإخلاص في نفسه كلما لاح أمام ناظره شيء من حظوظ النفس، والأثرة، أو التطلع إلى جاه، والرغبة في العلو والافتخار، أو الانتصار.

«والعلل الناشئة عن فقدان الإخلاص كثيرة، وهي إذا استفحلت استأصلت الإيمان، وإذا قلّت تركت به ثلماً شتى، ينفذ منها الشيطان»^(١)، لذا ليس غريباً أن يأتي التوكيد على هذا الأصل الأصيل في هذا المقام العظيم: مقام الجهاد والمجاهدة.

وإذا تقرر أن السورة مكية - على القول الصحيح من أقوال المفسرين - وهو الذي لم تجب فيه بعد شعيرة الجهاد بمعناه الخاص -وهو قتال المشركين لإعلاء كلمة

(١) خلق المسلم للغزالي: (ص ٦٦).

الله - فإن ثمة معنى كبيراً تشير إليه هذه القاعدة - ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ - وهو أن من أبلغ صور الجهاد: الصبر على الفتن بنوعيتها: فتن السراء وفتن الضراء، والتي أشارت أوائل سورة العنكبوت إلى شيء منها.

وهذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ دلت على شيء آخر، كما يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وهو أن أكمل الناس هدايةً أعظمهم جهاداً، وأفرض الجهاد جهاد النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا، فمن جاهد هذه الأربعة في الله، هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته، ومن ترك الجهاد فاتته من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد... - إلى أن قال رَحِمَهُ اللهُ -: ولا يتمكن من جهاد عدوه في الظاهر إلا من جاهد هذه الأعداء باطنًا، فمن نُصِرَ عليها نُصِرَ على عدوه، ومن نصرت عليه نُصِرَ عليه عدوه»^(١).

وفي كلمات الأعلام من سلف هذه الأمة، والتابعين لهم بإحسان ما يوسع دلالة هذه القاعدة:

فهذا الجنيد رَحِمَهُ اللهُ يقول - في تعليقه على هذه القاعدة القرآنية: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ -: والذين جاهدوا أهواءهم فينا بالتوبة؛ لنهدينهم سبل الإخلاص.

ولأهل العلم نصيب من هذه القاعدة، يقول أحمد بن أبي الحواري: حدثني عباس بن أحمد - في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ -: الذين يعملون بما يعلمون، نهديهم إلى ما لا يعلمون.

وهذا الذي ذكره هذا العالم الجليل هو معنى ما روي في الأثر: من علم بما عمل، ورّثه الله علم ما لم يعمل، وشاهد هذا في كتاب الله: ﴿وَالَّذِينَ آهَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَآثَنَهُمْ

(١) الفوائد: (ص ٥٩).

تَقْوَاهُمْ ﴿[محمد: ١٧].

وكان عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «جهلنا بما علمنا تركنا العمل بما علمنا ولو عملنا بما علمنا لفتح الله على قلوبنا غلق ما لا تهتدي إليه آمالنا»^(١).

وفي واقع المسلمين أحوال تحتاج إلى استشعار معنى هذه القاعدة القرآنية: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾:

فمن له والدان كبيران مريضان، بحاجة أن يستشعر هذه القاعدة. ومن سلك طريق طلب العلم، فطال عليه بعض الشيء بحاجة أن يتأمل معاني هذه القاعدة.

ومن فرغ جزء من وقته لتربية النشء والشباب، أو لتعليم أبناء وبنات المسلمين كتاب الله ﷻ -وقد دب إليه الفتور- هو بحاجة ماسة ليتدبر هذه القاعدة. وبالجملة: فكل من نصب نفسه لعمل صالح، سواء كان قاصراً أم متعدياً، فعليه أن يتدبر هذه القاعدة كثيراً؛ فإنها بلسم شافٍ في طريق السائرين إلى ربهم، ويوشك المؤمن أن ينسى كل ما واجهه من تعب ونصب، إذا وضع قدمه على أول عتبة من عتبات الجنة، جعلني الله وإياكم -ووالدينا وذرياتنا- من أهلها، ومن الدعاة إلى دخولها.



(١) درء تعارض العقل والنقل: (٤/٣٥٨).



قواعد قرآنية

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة



القاعدة الخامسة والعشرون

﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾

هذه قاعدة من القواعد التي تتصل بفقه السنن الإلهية في الأمم والمجتمعات. وقد تنوعت عبارات المفسرين في بيان المراد بهذه الآيات التي يرسلها ربنا تعالى، فمن قائل: هو الموت المتفشي الذي يكون بسبب وباء أو مرض، ومن قائل: هي معجزات الرسل جعلها الله تعالى تخويفاً للمكذبين، وثالث يقول: آيات الانتقام تخويفاً من المعاصي.

وهذا الإمام ابن خزيمة رَحِمَهُ اللهُ ييُوب على أحاديث الكسوف بقوله: باب ذكر الخبر الدال على أن كسوفها تخويف من الله لعباده، قال الله ﷻ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾^(١).

وكل هذه العبارات - في تنوعها - تشير إلى أن الآيات لا يمكن حصرها في شيء واحد، وما ذكره السلف - رحمهم الله - إنما هو عبارة عن أمثلة لهذه الآيات، وليس مرادهم بذلك حصر الآيات في نوع واحد منها، وهذه هي عادة السلف في أمثال هذه المواضع عندما يفسرونها.

(١) صحيح ابن خزيمة: (٣٠٩/٢).

والمهم هنا أن يتأمل المؤمن والمؤمنة كثيرًا في الحكمة من إرسال هذه الآيات ألا وهي التخويف، أي: حتى يكون الإنسان خائفًا وجلًّا من عقوبة قد تنزل به.

يقول قتادة رَحِمَهُ اللهُ في بيان معنى هذه القاعدة القرآنية: ﴿وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخَوِيفًا﴾ -: «إن الله يخوف الناس بما شاء من آية لعلهم يعتبرون، أو يذكرون، أو يرجعون، ذكر لنا أن الكوفة رجفت على عهد ابن مسعود، فقال: يا أيها الناس إن ربكم يستعذبكم فأعتبوه»^(١).

وروى ابن أبي شيبة رَحِمَهُ اللهُ في مصنفه من طريق صفية بنت أبي عبيد قالت: زلزلت الأرض على عهد عمر حتى اصططفت السرر، فوافق ذلك عبد الله بن عمر وهو يصلي، فلم يدر، قال: فخطب عمر الناس وقال: لئن عادت لأخرجن من بين ظهرانيكم.

وهذا التوارد في كلمات السلف في بيان معنى هذه الآية يؤكد أن السبب الأكبر في إرسال الآيات: هو تخويف العباد، وترهيبهم مما يقع منهم من ذنوب ومعاصي، لعلهم يرجعون إلى ربهم الذي أرسل لهم هذه الآيات والنذر، وإن لم يرجعوا فإن هذه علامة قسوة في القلب - عيادًا بالله تعالى - كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾^(٤٢) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ^(٤٣) فَلَمَّا سَأَوْا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿[الأنعام: ٤٢ - ٤٤].

وكما قال ربنا ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦].

(١) تفسير الطبري: (١٧/٤٧٨).

- فإن قلت: ما الجواب عما روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال - لما سمع بخسف - :
 كنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم نعد الآيات بركة، وأنتم تعدونها تخويفاً؟
 فالجواب: أن مراد ابن مسعود رضي الله عنه - كما بينه الإمام الطحاوي - : «أنا كنا نعدّها
 بركة؛ لأننا نخاف بها فنزداد إيماناً وعملاً، فيكون ذلك لنا بركة، وأنتم تعدونها تخويفاً
 ولا تعملون معها عملاً يكون لكم به بركة، ولم يكن ما قال عبد الله رضي الله عنه عندنا مخالفاً
 لما جاء به كتاب الله تعالى من قول الله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ أي: تخويفاً
 لكم بها لكي تزدادوا عملاً وإيماناً؛ فيعود ذلك لكم بركة»^(١).

ومع وضوح هذا المعنى الذي دلت عليه هذه القاعدة القرآنية، ومع ظهوره، إلا
 أن من المؤسف جداً أن يقرأ الإنسان أو يسمع بعض كُتّاب الصحف، أو المتحدثين
 على بعض المنابر الإعلامية ممن يسخرون أو يهونون من هذه المعاني الشرعية الظاهرة!
 ويريدون أن يختصروا الأسباب في وقوع الزلازل أو الفيضانات، أو الأعاصير -
 ونحوها من الآيات العظام- في أسباب مادية محضة، وهذا غلط عظيم!

ونحن لا ننكر أن لزلزلة الأرض أسباباً جيولوجية معروفة، وللفيضانات
 أسبابها، وللأعاصير أسبابها المادية، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه: من الذي أمر
 الأرض أن تتحرك وتضطرب؟ ومن الذي أذن للماء أن يزيد عن قدره المعتاد في بعض
 المناطق؟ ومن الذي أمر الرياح أن تتحرك بتلك السرعة العظيمة؟ أليس هو الله؟!
 أليس الذي أرسلها يريد من عباده أن يتضرعوا إليه، ويستكينوا له لعله يصرف عنهم
 هذه الآيات؟!

ولا أدري! ألم يتأمل هؤلاء دلالة هذه القاعدة من الناحية اللغوية؟ فإنها جاءت

(١) انظر: شرح مشكل الآثار (٦/٩).

بأسلوب الحصر: ﴿وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ فهي في قوة الحصر الذي دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٦٢]، وهي في قوة الحصر الذي دلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦] ونحوها من الآيات.

ثم ماذا يصنع هؤلاء الذين يهونون من شأن هذه الآيات - شعروا أم لم يشعروا، قصدوا أم لم يقصدوا - بمثل تلك التفسيرات المادية الباردة، ماذا يصنعون بما رواه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أنها قالت: كان النبي ﷺ إذا عصفت الرياح، قال: «اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به» قالت: وإذا تخيلت السماء - وهي سحابة فيها رعد وبرق يخيل إليه أنها ماطرة - تغير لونه، وخرج ودخل، وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سُري عنه، فعرفت ذلك في وجهه، قالت عائشة: فسألته؟ فقال: لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾^(١).

ولا أدري كيف يجيب هؤلاء عن قوله تعالى في حق قوم نوح: ﴿مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ [نوح: ٢٥]؟! يقول ابن كثير رحمته الله في بيان معنى قوله ﷻ: ﴿مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ﴾: أي من كثرة ذنوبهم وعتوهم وإصرارهم على كفرهم ومخالفتهم رسولهم ﴿أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ أي نقلوا من تيار البحار إلى حرارة النار^(٢).

(١) البخاري ح (٤٥٥١)، مسلم ح (٨٩٩) واللفظ والدعاء لمسلم.

(٢) تفسير ابن كثير: (٨/ ٢٣٨) ط: دار طيبة.

وأما ما يورده بعض الناس من قولهم:

هناك بلاد أشد معصية من تلك البلاد التي أصابها ذلك الزلزال، ويوجد دول أشد فجورًا من تلك التي ضربها ذاك الإعصار، فهذه الإيرادات لا ينبغي أن تورد أصلاً؛ لأنها كالاغتراض على حكمة الله تعالى في أفعاله وقضائه وقدره، فإن ربنا يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد، والله يقضي بالحق، وربنا لا يُسأل عما يفعل، وله **تَكَلُّمُ** الحكمة البالغة، والعلم التام، ومن وراء الابتلاءات حكم وأسرار تعجز عقولنا عن الإحاطة بها، فضلاً عن إدراكها.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا الاعتبار والادكار، والاتعاظ بها نوعظ به، ونعوذ بالله من قسوة القلب التي تحول دون الفهم عن الله وعن رسوله.





قواعد قرآنية

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة



القاعدة السادسة والعشرون

﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾

هذه قاعدة قرآنية عظيمة الصلة بواقع الناس، وازدادت الحاجة إلى التنويه بها في هذا العصر الذي اتسعت فيه وسائل نقل الأخبار.

وهذه القاعدة القرآنية الكريمة جاءت ضمن سياق الآداب العظيمة التي أدب الله بها عباده في سورة الحجرات، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْحِرُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

ولهذه الآية الكريمة سبب نزول توارد المفسرون على ذكره، وخلاصته أن الحارث بن ضرار الخزاعي رضي الله عنه - سيد بني المصطلق - لما أسلم اتفق مع النبي ﷺ أن يبعث له - في وقت اتفقا عليه - جابياً يأخذ منه زكاة بني المصطلق، فخرج رسول رسول ﷺ لكنه خاف فرجع في منتصف الطريق، فاستغرب الحارث بن ضرار تأخر رسول رسول الله ﷺ، وفي الوقت ذاته لما رجع الرسول إلى النبي ﷺ قال: يا رسول الله! إن الحارث منعني الزكاة، وأراد قتلي، فغضب الرسول الله ﷺ وبعث إلى الحارث، فالتقى البعث الذين بعثهم الرسول ﷺ مع الحارث بن ضرار في الطريق، فقال لهم: إلى من بُعثتم؟ قالوا: إليك! قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ كان بعث إليك الوليد

بن عقبة، فزعم أنك منعتك الزكاة وأردت قتله! قال: لا والذي بعث محمداً بالحق، ما رأيته بته ولا أتاى!! فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال: «منعت الزكاة وأردت قتل رسولي؟! قال: لا والذي بعثك بالحق، ما رأيته ولا أتاى، وما أقبلت إلا حين احتبس على رسول رسول الله ﷺ، خشيت أن تكون كانت سخطة من الله ﷻ ورسوله، قال فنزلت الحجرات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِجْهَلَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ انتهى الحديث مختصراً، وقد رواه الإمام أحمد بسند لا بأس به، ويعضده الإجماع الذي حكاه ابن عبد البر على أنها نزلت في هذه القصة^(١).

وجاء في قراءة سبعية: ﴿فتثبتوا﴾ وهذه القراءة تزيد الأمر وضوحاً؛ فهي تأمر عموم المؤمنين حين يسمعون خبراً أن يتحققوا بأمرين:

الأول: التثبت من صحة الخبر.

الثاني: التبين من حقيقته.

فإن قلت: فهل بينهما فرق؟

فالجواب: نعم؛ لأنه قد يثبت الخبر، ولكن لا يُدرى ما وجهه!

ولعلنا نوضح ذلك بقصة وقعت فصولها في عهد النبي ﷺ، وذلك حين خرج النبي ﷺ من مسجده ليوصل زوجته صفية رضي الله عنها إلى بيتها، فرآه رجلان فأسرعا المسير، فقال: «على رسلكما إنها صفية»^(٢).

(١) قال ابن عبد البر في «الاستيعاب» (٤/١٥٥٣) عند ترجمة الوليد بن عقبة: ولا خلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن - فيما علمت - أن قوله ﷻ: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ﴾ نزلت في الوليد بن عقبة وذلك أنه بعثه رسول الله.

(٢) البخاري ح (٣١٠٧)، ومسلم ح (٢١٧٥).

فلو نقل ناقل أنه رأى النبي ﷺ يمشي مع امرأة في سواد الليل لكان صادقاً، لكنه لم يتبين حقيقة الأمر، وهذا هو التبين.

وهذا مثال قد يواجهنا يومياً: فقد يرى أحدنا شخصاً دخل بيته والناس متجهون إلى المساجد لأداء صلاتهم.

فلو قيل: إن فلاناً دخل بيته والصلاة قد أقيمت، لكان ذلك القول صواباً، لكن هل تبين سبب ذلك؟ وما يدريه؟! فقد يكون الرجل لتوّه قدم من سفر، وقد جمع جمع تقديم فلم تجب عليه الصلاة أصلاً، أو لغير ذلك من الأعذار! وهذا مثال آخر قد يواجهنا في شهر رمضان مثلاً:

قد يرى أحدنا شخصاً يشرب في نهار رمضان ماءً أو عصيراً، أو يأكل طعاماً في النهار، فلو نقل ناقل أنه رأى فلاناً من الناس يأكل أو يشرب لكان صادقاً، ولكن هل تبين حقيقة الأمر؟ قد يكون الرجل مسافراً وأفطر أول النهار فاستمر في فطره - على قول طائفة من أهل العلم في إباحة ذلك - وقد يكون مريضاً، وقد يكون ناسياً،... إلى آخر تلك الأعذار.

وفي هذه القاعدة القرآنية دلالات أخرى، منها:

١- أن خبر العدل مقبول غير مردود، اللهم إلا إن لاحظت قرائن تدل على وهمه وعدم ضبطه فإنه يُرد.

٢- «أنه سبحانه لم يأمر برّد خبر الفاسق وتكذيبه ورد شهادته جملةً، وإنما أمر بالتبين، فإن قامت قرائن وأدلة من خارج تدل على صدقه عمل بدليل الصدق، ولو أخبر به من أخبر»^(١).

(١) مدارج السالكين: (١/ ٣٦٠).

٣- ومنها: أنها تضمنت ذم التسرع في إذاعة الأخبار التي يخشى من إذاعتها، ولقد عاب ربنا تبارك وتعالى هذا الصنف من الناس، كما في قوله ﷺ: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنَيطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ﴾ [يونس: ٣٩]^(١).

٤- أن في تعليل هذا الأدب بقوله: ﴿أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِجَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ ما يوحي بخطورة التعجل في تلقي الأخبار عن كل أحد، خصوصاً إذا ترتب على تصديق الخبر طعن في أحد، أو بهت له.

إذا تبين هذا المعنى، فإن من المؤسف أن يجد المسلم خرقاً واضحاً من قبل كثير من المسلمين لهذه القاعدة القرآنية المحكمة: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾، وازداد الأمر واتسع مع وسائل الاتصال المعاصرة كأجهزة الجوال والإنترنت وغيرها من الوسائل!

وأعظم من يكذب عليه من الناس في هذه الوسائل هو رسول الله ﷺ، فكم نسبت إليه أحاديث وقصص لا تصح عنه! بل بعضها كذب عليه، لا يصح أن ينسب لآحاد الناس فضلاً عن شخصه الشريف ﷺ!

ويلي هذا الأمر في الخطورة: التسرع في النقل عن العلماء، خصوصاً العلماء الذين ينتظر الناس كلمتهم، ويتبعون أقوالهم، وكلُّ هذا محرم لا يجوز، وإذا كنا أمرنا في هذه القاعدة القرآنية: ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ أن نتحرى ونثبت من الأخبار عموماً؛ فإنها في حق النبي ﷺ وحق ورثته أشد وأشد.

ومثل ذلك يقال: في النقل عما يصدر عن ولاية أمور المسلمين، وعن خواص

(١) ينظر: القواعد الحسان في تفسير القرآن (٩٨).

المسلمين ممن يكون لنقل الكلام عنهم له أثره، فالواجب التثبت والتبين، قبل أن يندم الإنسان ولات ساعة مندم.

ولا يقتصر تطبيق هذه القاعدة القرآنية: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنِإِ فَتَبَيَّنُوا﴾ على ما سبق ذكره، بل هي قاعدة يحتاجها الزوجان، والآباء مع أبنائهم، والأبناء مع آبائهم.

ولله كم من بيت تقوضت أركانه بسبب الإخلال بهذه القاعدة القرآنية!

هذه رسالة قد تصل إلى جوال أحد الزوجين، فإن كانت من نصيب جوال الزوجة، واطلع الزوج عليها، سارع إلى الطلاق قبل أن يتثبت من حقيقة هذه الرسالة التي قد تكون رسالة طائشة جادة أو هازلة جاءت من مغرض أو على سبيل الخطأ! وقل مثل ذلك: في حق رسالة طائشة جادة أو هازلة تصل إلى جوال الزوج، فتكتشفها الزوجة، فتتهم زوجها بخيانة أو غيرها، فتبادر إلى طلب الطلاق قبل أن تتثبت من حقيقة الحال!

ولو أن الزوجين أعملا هذه القاعدة القرآنية: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ لما حصل هذا كله.

وإذا انتقلت إلى ميدان الصحافة أو غيرها من المنابر الإعلامية؛ وجدت عجباً من خرق سياج هذا الأدب.. فكم من تحقيقات صحفية بنيت على خبر إما أصله كذب، أو ضخم وفُخِّم حتى صُور للقراء على أن الأمر بتلك الضخامة والهلول، وليس الأمر كما قيل!

والواجب على كل مؤمن معظم لكلام ربه أن يتقي ربه، وأن يتمثل هذا الأدب القرآني الذي أرشدت إليه هذه القاعدة القرآنية الكريمة: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾.

جعلنا الله وإياكم من المتأدبين بأدب القرآن العاملين به.





قواعد قرآنية

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة



القاعدة السابعة والعشرون

﴿وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾

هذه قاعدة قرآنية عظيمة القدر؛ لعظيم أثرها في حياة العبد، وقوة صلتها بتلك المضغة التي بين النبي ﷺ أن صلاحها صلاح لبقية الجسد، وفسادها فساد له.

التزكية تطلق ويراد بها معنيان:

المعنى الأول: التطهير، ومنه قوله تعالى عن يحيى: ﴿وَزَكُوهُ وَكَانَ تَقِيًّا﴾ فإن الله زكاه وطهر قلبه وفؤاده، وهذا تطهير معنوي، ويطلق على التطهير الحسي، يقال: زكيت الثوب إذا طهرته.

والمعنى الثاني: هو الزيادة، يقال زكى المال يزكو إذا نمت.

وكلا المعنيين اللغويين مقصودان في الشرع؛ لأن تزكية النفس شاملة للأمرين: تطهيرها وتحليلتها من الأدران والأوساخ الحسية والمعنوية، وتنميتها وتحليلتها بالأوصاف الحميدة والفاضلة، فالزكاة - باختصار - تدور على أمرين: التحلية، والتحلية.

والمقصود بالتحلية: أي تطهير القلب من أدران الذنوب والمعاصي، والمقصود بالتحلية: أي تحلية النفس بمكارم الأخلاق، وطيب الشرائع، وهما عمليتان تسيران

جنباً إلى جنب، فالمؤمن مطالب «بالتنقي من العيوب: كالرياء والكبر، والكذب والغش، والمكر والخداع والنفاق، ونحو ذلك من الأخلاق الرذيلة، ومطالب بالتحلي بالأخلاق الجميلة: من الصدق، والإخلاص، والتواضع، ولين الجانب، والنصح للعباد، وسلامة الصدر من الحقد والحسد وغيرهما من مساوئ الأخلاق؛ فإن تركيته يعود نفعها إليه، ويصل مقصودها إليه، ليس يضيع من عمله شيء»^(١).

وعلى هذا المعنى جاءت الآيات القرآنية بالأمر بتزكية النفس وتهذيبها، كقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾^(١٤) و﴿ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾^(١٥)، وقال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾^(١٦) و﴿قَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾^(١٧)، وكما في هذه القاعدة القرآنية التي نحن بصدددها: ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾^(١٨).

وهذه الآية جاءت في سورة فاطر ضمن السياق التالي: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(١٥) **إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ**^(١٦) **وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ**^(١٧) **وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمَلٍهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا نُنَادِرُ الَّذِينَ يُخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ**^(١٨) [فاطر: ١٥-١٨].

قال العلامة ابن عاشور: «وجملة ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ تذييل جار مجرى المثل، وذكر التذييل عقب المذيل يؤذن بأن ما تضمنه المذيل داخل في التذييل بادئ ذي بدء مثل دخول سبب العام في عمومه من أول وهلة دون أن يخص العام به، فالمعنى: أن الذين خشوا ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة هم ممن تزكى فانتفعوا بتزكيتهم، فالمعنى: إنما ينتفع بالندارة الذين يخشون ربهم بالغيب فأولئك تزكوا بها ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه.

(١) تفسير السعدي: (ص ٦٨٧).

والمقصود من القصر في قوله: ﴿فَاتَّمَايَزَكِّي لِنَفْسِهِ﴾ أن قبولهم النذارة كان لفائدة أنفسهم، ففيه تعريض بأن الذين لم يعبؤوا بنذارته تركوا تركية أنفسهم بها، فكان تركهم ضرًا على أنفسهم^(١).

إن من تأمل نصوص القرآن وجد عناية عظيمة بمسألة تركية النفوس: فهذا خليل الرحمن حينما دعا بأن يبعث من ذريته رسولاً، ذكر من جملة التعليقات: تركية الناس الذين سيدعوهم، فقال ﷺ: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وربنا تعالى يذكر عباده بمرتبة عليهم، حين استجاب دعوة خليله إبراهيم، وأن من أعظم وظائفه هي تركية نفوسهم، فقال ﷺ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

ولما دعا نبي الله موسى فرعون اختصر له دعوته في جملتين: ﴿هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَزَكِّيَ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ [النازعات: ١٨ - ١٩].

ومن تأمل سورة الشمس، أدرك عظيم هذه الغاية، وخطورة هذه العبادة الجليلة، فإن الله تعالى أقسم أحد عشر قسمًا متتابعًا على أن فلاح النفس لا يكون إلا بتزكيتها! ولا يوجد في القرآن نظير لهذا - أعني تتابع أحد عشر قسمًا على مُقَسِّمٍ واحد - وهو بلا ريب دليل واضح، وبرهان ساطع على خطورة هذا الموضوع.

(١) التحرير والتنوير: (١٢ / ٤٣).

إن منطوق هذه القاعدة القرآنية: ﴿وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾ يدل بوضوح أن أعظم أثر لهذه التزكية هو أثرها على نفس المتزكي، ومفهومها يتضمن تهديداً: أنك إن لم تتزك يا عبد الله، فإن أعظم متضرر بإهمال التزكية هو أنت.

ولئن كانت هذه القاعدة تعني كل مسلم يسمعها، فإن حظ الداعية وطالب العلم منها أعظم وأوفر؛ لأن الأنظار إليه أسرع، والخطأ منه أوقع، والنقد عليه أشد، ودعوته يجب أن تكون بحاله قبل مقاله.

ولعظيم منزلة تزكية النفس في الدين، كان الأئمة والعلماء المصنفون في العقائد يؤكدون على هذا الأمر بعبارات مختلفة، منها ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ جملةً من الصفات السلوكية والأخلاقية لأهل السنّة، ومن ذلك قوله: «يأمرون بالصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء، ويدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ويعتقدون معنى قوله ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً»^(١)... ويأمرون بمعالي الأخلاق وينهون عن سفاسفها»^(٢).

وإنما نص أئمة الدين على ذلك؛ لأن هناك تلازماً وثيقاً بين السلوك والاعتقاد: فالسلوك الظاهر مرتبطٌ بالاعتقاد الباطن، فأَيُّ انحرافٍ في الأخلاق إنما هو من نقص الإيمان الباطن، قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «إذا نقصت الأعمال الظاهرة الواجبة، كان ذلك لنقص ما في القلب من الإيمان، فلا يتصور مع كمال الإيمان الواجب الذي في القلب، أن تُعدم الأعمال الظاهرة الواجبة»^(٣).

ويقول الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ: «الأعمال الظاهرة في الشرع دليلٌ على ما في الباطن، فإذا

(١) الترمذي ح (١١٦٢)، وغيره، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) مجموع الفتاوى: (٣/١٥٨-١٥٩).

(٣) ينظر: مجموع الفتاوى: (٧/٥٨٢، ٦٢١، ٦١٦).

كان الظاهر منخرمًا أو مستقيمًا حُكم على الباطن بذلك»^(١).

فالسُّلُوكُ والاعتقادُ متلازمان، كذلك فإن من الأخلاقِ والسلوك ما هو من شُعَبِ الإيمان.

ولهذا: لما ظن بعض الناس -ومنهم بعض طلاب العلم- أن أمر التزكية سهلٌ أو يسيرٌ أو من شأن الوعاظ فحسب! يقال ذلك إما بلسان الحال أو بلسان المقال؛ وَجِدَتْ صورٌ كثيرة من التناقضات والفصام النكد بين العلم والعمل!

إن سؤالاً يتبادر إلى الذهن ونحن نتحدث عن هذه القاعدة القرآنية: كيف نزكي نفوسنا؟ والجواب عن هذا يطول جدًا، لكنني أشير باختصار إلى أهم وسائل تزكية النفس، فمن ذلك:

١- توحيد الله تعالى، وقوة التعلق به.

٢- ملازمة قراءة القرآن، وتدبره.

٣- كثرة الذكر عمومًا.

٤- المحافظة على الصلاة المفروضة، وقيام الليل ولو قليلاً.

٥- لزوم محاسبة النفس بين الفينة والأخرى.

٦- حضور الآخرة في قلب العبد.

٧- تذكر الموت، وزيارة القبور.

٨- قراءة سير الصالحين.

وفي مقابل هذا: فإن العاقل من يتنبه لسد المنافذ التي قد تُفسد عليه أثر تلك الوسائل؛ لأن القلب الذي يتلقى الوسائل والعوائق موضع واحد لا يمكن انفصاله.

(١) الموافقات: (١/٢٣٣).

إذن: لا يكفي أن يأتي الإنسان بالوسائل، بل لا بد من الانتباه إلى العوائق، مثل: النظر إلى المحرمات، أو سماع المحرمات، أو إطلاق اللسان فيما لا يعني -فضلاً عما حرم الله تعالى-.

اللهم إنا نسألك وندعوك بما دعاك به نبيك محمد ﷺ: «اللهم آت نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها اللهم إنا نعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها»^(١).



(١) صحيح مسلم ح (٢٧٢٢).



القاعدة الثامنة والعشرون

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾

هذه قاعدة قرآنية عظيمة الصلة بواقع الناس، وازدادت الحاجة إلى التنويه بها في هذا العصر الذي اتسعت فيه وسائل نقل الأخبار.

وهذه القاعدة القرآنية الكريمة تكررت ثلاث مرات في كتاب الله ﷻ، كلها في قصة شعيب عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

ومن المعلوم أن من جملة الأمور التي وعظ بها شعيب قومَه: مسألة التطفيف في الكيل والميزان، حيث كان هذا فاشياً فيهم، ومنتشراً بينهم.

وهذا مثال -من جملة أمثلة كثيرة- تدل على شمول دعوات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لجميع مناحي الحياة، وأنهم كما يدعون إلى أصل الأصول -وهو التوحيد- فهم يدعون إلى تصحيح جميع المخالفات الشرعية، مهما ظنَّ بعض الناس أنها مخالفات هينة؛ إذ لا يتحقق كمال العبودية لله تعالى إلا بأن تكون أمور الدين والدنيا خاضعةً لسلطان الشرع.

وأنت إذا تأملت هذه القاعدة القرآنية: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ وجدتها جاءت بعد عموم النهي عن نقص المكيال والميزان، فهو عموم بعد خصوص؛

ليشمل جميع ما يمكن بخسه من القليل والكثير، والجليل والحقير.

قال العلامة الطاهر ابن عاشور رَحْمَةُ اللَّهِ: «وما جاء في هذا التشريع هو أصل من أصول رواج المعاملة بين الأمة؛ لأنّ المعاملات تعتمد الثقة المتبادلة بين الأمة، وإنّما تحصل بشيوع الأمانة فيها، فإذا حصل ذلك نشط الناس للتعامل فالمنتج يزداد إنتاجاً وعَرَضاً في الأسواق، والطَّالِبُ من تاجر أو مُستهلك يُقْبِل على الأسواق آمناً لا يخشى غبناً ولا خديعة ولا خِلافة، فتتوفّر السلع في الأمة، وتستغني عن اجتلاب أقواتها وحاجياتها وتحسينياتها؛ فيقوم نهاء المدينة والحضارة على أساس متين ويعيش الناس في رخاء وتحابب وتآخ، وبضد ذلك يختلّ حال الأمة بمقدار تفشي ضدّ ذلك»^(١).

وقال بعض المفسرين -مبيناً سعة مدلول هذه القاعدة-:

«وهو عامّ في كل حق ثبت لأحد أن لا يهضم، وفي كل ملك أن لا يغصب عليه مالكة ولا يتحيف منه، ولا يتصرف فيه إلا بإذنه تصرفاً شرعياً»^(٢).

إذا تبين سعة مدلول هذه القاعدة، وأن من أخص ما يدخل فيها: بخس الحقوق المالية؛ فإن دلالتها تتسع لتشمل كلّ حق حسي أو معنوي ثبت لأحد من الناس. أما الحقوق الحسية فكثيرة، منها: ما سبقت الإشارة إليه - كالحق الثابت للإنسان كالبيت والأرض والكتاب والشهادة الدراسية - ونحو ذلك.

وأما الحقوق المعنوية، فأكثر من أن تحصر، ولكن يمكن القول: إن هذه القاعدة القرآنية كما هي قاعدة في أبواب المعاملات، فهي بعمومها قاعدة من قواعد الإنصاف مع الغير.

والقرآن مليء بتقرير قاعدة الإنصاف، وعدم بخس الناس حقوقهم، تأمل

(١) التحرير والتنوير: (٥ / ٤٥١).

(٢) تفسير الكشاف: (٣ / ٣٣٧).

-مثلاً- قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨] فتصور! ربك يأمرك أن تنصف عدوك، وألا يملك بغضه على غمط حقه، أفتظن أن ديناً يأمرك بالإنصاف مع عدوك، لا يأمرك بالإنصاف مع أخيك المسلم؟! مع أخيك المسلم؟!

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ -معلقاً على هذه الآية-: «فنهى أن يحمل المؤمنين بغضهم للكفار على ألا يعدلوا عليهم، فكيف إذا كان البغض لفاسق أو مبتدع متأول من أهل الإيمان؟! فهو أولى أن يجب عليه ألا يحمله ذلك على ألا يعدل على مؤمن وإن كان ظالماً له»^(١).

وفي واقع المسلمين ما يندى له الجبين من بخس للحقوق، وإجحاف وقلة الإنصاف، حتى أدى ذلك إلى قطيعة وتدابير، وصدق المتنبي يوم قال:

ولم تزل قلة الإنصاف قاطعة بين الرجال وإن كانوا ذوي رحم

وهذا إمام دار الهجرة مالك بن أنس رَحِمَهُ اللهُ، يعلن شكواه قديماً من هذه الآفة، فيقول: «ليس في الناس شيء أقل من الإنصاف».

علق ابن رشد على هذه الكلمة فقال: «قال مالك هذا لما اختبره من أخلاق الناس، وفائدة الإخبار به التنبيه على الذم له؛ لينتهي الناس عنه فيعرف لكل ذي حق حقه»^(٢).

وقلب صفحات التعامل في واقعنا:

يختلف أحدنا مع شخص آخر من أصدقائه، أو مع أحد من هل الفضل والخير، فإذا غضب عليه أطاح به، ونسي جميع حسناته، وجميع فضائله، وإذا تكلم عنه تكلم

(١) الاستقامة: (١ / ٣٨).

(٢) البيان والتحصيل: (١٨ / ٣٠٦).

عليه بما لا يتكلم به أشد الناس عداوة، والعياذ بالله!

وقُلْ مثل ذلك: في تعاملنا مع زلة العالم، أو خطأ الداعية، الذين عرف عنهم جميعًا تلمس الخير، والرغبة في الوصول إلى الحق، ولكن لم يوفق في هذه المرة أو تلك، فتجد بعض الناس ينسى أو ينسف تاريخه وبلاءه وجهاده ونفعه للإسلام وأهله، بسبب خطأ لم يحتمله ذلك المتكلم أو الناقد، مع أنه قد يكون معذورًا فيه!

ولنفترض أنه غير معذور، فما هكذا تورد الإبل، وما هكذا يربينا القرآن! بل إن هذه القاعدة القرآنية التي نحن بصدد الحديث عنها تؤكد ضرورة الإنصاف، وعدم بخس الناس حقوقهم.

وثمة صورة أخرى -تتكرر يوميًا تقريبًا- يغيب فيها الإنصاف، وهي أن بعض الكتاب والمحدثين حينما ينتقد جهازًا حكوميًا، أو مسئولًا عن أحد الوزارات، يحصل منه إجحاف وبخس للجوانب المشرقة في هذا الجهاز أو ذاك، ويبدأ الكاتب أو المتحدث - بسبب النفسية التي دخل بها - لا يتحدث إلا من زاوية الأخطاء، ناسيًا أو متناسيًا النظر من زاوية الصواب والحسنات الكثيرة التي وُفق لها ذاك المرفق الحكومي، أو ذلك الشخص المسئول!

وما هكذا يربي القرآن أهله، بل القرآن يربيهم على هذا المعنى العظيم الذي دلّت عليه هذه القاعدة المحكمة: ﴿وَلَا يَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾.

وتلوح ههنا صورة مؤلمة في مجتمعنا، تقع من بعض الكفلاء الذين يبخسون حقوق خدمهم أو عمالهم، فيؤخرون رواتبهم، وربما حرموهم من إجازتهم المستحقة لهم، أو ضربوهم بغير حق، في سلسلة مؤلمة من أنواع الظلم والبخس! أفلا يتقي الله هؤلاء؟! ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٤ - ٦] ألا يخشون أن يُسلَّطَ عليهم -بسبب ظلمهم لمن تحت أيديهم

وبخسهم حقوق خدمهم وعمالهم - من يظلمهم ويبخسهم حقوقهم؟! ألا يخشون من عقوبات دنيوية - قبل الأخروية - تصيهم بما صنعوا؟!!

يقع البخس - أحياناً - في تقييم الكتب أو المقالات على النحو الذي أشرنا إليه آنفاً، ولعل من أسباب غلبة البخس على بعض النقاد في هذه المقامات، أن الناقد يقرأ بنية تصيد الأخطاء والعيوب، لا بقصد التقييم المنصف، وإبراز الصواب من الخطأ، عندها يتضخم الخطأ، ويغيب الصواب، والله المستعان.

نسأل الله تعالى أن يرزقنا الإنصاف من أنفسنا، والإنصاف لغيرنا، وأن يجعلنا من المتأدبين بأدب القرآن العاملين به.





قواعد قرآنية

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة



القاعدة التاسعة والعشرون

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾

هذه قاعدة قرآنية عظيمة الصلة بواقع الناس، وازدادت الحاجة إلى التنبؤ بها في هذا العصر الذي اتسعت فيه وسائل نقل الأخبار، وكثر فيها تكالب الأعداء بصنفيهم: المعلن والخفي.

ولكي تفهم هذه القاعدة جيداً، فلا بد من ذكر السياق الذي وردت فيه من سورة النساء، يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشَرُّونَ الصَّلَاةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ۝٤٥﴾ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٤٦﴾ [النساء: ٤٤ - ٤٦].

وهذا - كما هو ظاهر - : «ذم لمن ﴿أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾»، وفي ضمنه تحذير عباده عن الاغترار بهم، والوقوع في أشراكهم، فأخبر أنهم في أنفسهم ﴿يَشَرُّونَ الصَّلَاةَ﴾ أي: يحبونها محبة عظيمة، ويؤثرونها إيثار من يبذل المال الكثير في طلب ما يحبه؛ فيؤثرون الضلال على الهدى، والكفر على الإيمان، والشقاء على السعادة،

ومع هذا ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾... فهم حريصون على إضلالكم غاية الحرص، باذلون جهدهم في ذلك.

ولكن لما كان الله ولي عباده المؤمنين وناصرهم، بَيَّن لهم ما اشتملوا عليه من الضلال والإضلال، ولهذا قال: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾ أي: يتولى أحوال عباده ويلطف بهم في جميع أمورهم، ويسر لهم ما به سعادتهم وفلاحهم، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ ينصرهم على أعدائهم، ويبين لهم ما يحذرون منهم ويعينهم عليهم، فولايته تعالى فيها حصول الخير، ونصره فيه زوال الشر، ثم بين كيفية ضلالهم وعنادهم وإيثارهم الباطل على الحق فقال: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا﴾ أي: اليهود وهم علماء الضلال منهم ﴿يُخْرِقُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾...^(١) إلخ تلك الجرائم التي تلتخطوها بها.

هؤلاء العلماء الضلال من أهل الكتاب صنف من أصناف الأعداء الذين حذرنا الله منهم، وإذا كان الله ﷻ يخبرنا هذا الخبر الصادق في هذه القاعدة القرآنية: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾ فحري بنا أن نتأمل جيدًا فيمن وصفهم ربنا بأنهم أعداء لنا، فليس أصدق من الله قِيلًا، ولا أصدق من الله حديثًا.

وعلى رأس أولئك الأعداء:

١ - عدو الله إبليس، الذي لم يأت تحذير من عدو كما جاء من التحذير منه، فكم في القرآن من وصفه بأنه عدو مبين؟ بل إن من أبلغ الآيات وضوحًا في بيان حقيقته وما يجب أن يكون موقفنا منه، هو قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]!

وقد جاء التعجب الصريح، والذم القبيح لمن قلب عداوة إبليس إلى ولاية، كما في قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ

(١) تفسير السعدي: (ص ١٨٠-١٨١).

عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفْتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ [الكهف: ٥٠]!

٢- الكفار المحاربون لنا، ومن كان في حكمهم ممن يريد تبديل ديننا، أو طمس معالم شريعتنا، قال تعالى - في سياق آيات صلاة الخوف من سورة النساء -: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ﴾ [النساء: ١٠١].

قال أهل العلم: «والمعنى أن العداوة الحاصلة بينكم وبين الكافرين قديمة والآل قد أظهرتم خلافهم في الدين وازدادت عداوتهم وبسبب شدة العداوة أقدموا على محاربتكم وقصد إتلافكم إن قدروا فإن طالَّت صلاتكم فربما وجدوا الفرصة في قتلكم»^(١).

وفي سورة الممتحنة ما يجلي هذا النوع من الأعداء، يقول ﷺ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُوا إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾﴾ [الممتحنة: ١ - ٢].

فهذا النوع من الكفار حرم الله علينا مودتهم وموالاتهم، وعلل القرآن هذا بقوله: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [إلخ الآيات].

ومن كمال الشريعة أنها فرقت بين أنواع الكفار، فقال الله تعالى في نفس سورة الممتحنة - التي حذرنا ربنا فيها من موالاته الصنف السابق -: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾

(١) ينظر: تفسير الرازي (١١ / ١٩).

إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُواكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَقُولُوا هُمْ مِّنْ يُّوْفُقِهِمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٨﴾ [الممتحنة: ٨ - ٩].

٣- والصنف الثالث الذين نص القرآن على عداوتهم، بل وشدتهم: هم المنافقون، الذين يظهرون الإيثار ويبطنون الكفر، وتتجلى شدة عداوة هذا الصنف في أمور:

أولاً: أنه لم يوصف في القرآن كله من فاتحته إلى خاتمته شخص أو فئة بأنه «العدو» معرباً بـ (أل) إلا المنافقون، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسْنَدَةٌ يُحَسِّبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ فَنَبِّئْهُمْ أَنَّ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤].

ثانياً: لم يأت تفصيل في القرآن والسنة لصفات طائفة أو مذهب كما جاء في حق المنافقين، وتأمل أوائل سورة البقرة يكشف لك هذا المعنى بوضوح.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وقد هتك الله سبحانه أستار المنافقين وكشف أسرارهم في القرآن وجلّى لعباده أمورهم ليكونوا منها ومن أهلها على حذر.

وذكر طوائف العالم الثلاثة في أول سورة البقرة: المؤمنين والكفار والمنافقين، فذكر في المؤمنين أربع آيات، وفي الكفار آيتين، وفي المنافقين ثلاث عشرة آية؛ لكثرتهم، وعموم الابتلاء بهم، وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله، فإن بلية الإسلام بهم شديدة جداً؛ لأنهم منسوبون إليه وإلى نصرته وموالاته وهم أعداؤه في الحقيقة.

يخرجون عداوته في كل قالب، يظن الجاهل أنه علم وإصلاح، وهو غاية الجهل والإفساد!

فلله كم من معقل للإسلام قد هدموه! وكم من حصن له قد قلعوا أساسه وخرّبوه! وكم من علم له قد طمسوه! وكم من لواء له مرفوع قد وضعوه! وكم

ضربوا بمعاول الشبه في أصول غراسه ليقلعوها! وكم عمّوا عيون موارد به آرائهم ليدفنوها ويقطعوها! فلا يزال الإسلام وأهله منهم في محنة وبلية ولا يزال يطرقه من شبههم سرية بعد سرية، ويزعمون أنهم بذلك مصلحون! ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون»^(١).

إذا تبين هذا، اتضح لنا أهمية تأمل هذه القاعدة القرآنية: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ﴾، وأن لا نتخذنا عن معرفة حقائق أعدائنا ظروف استثنائية، أو أحوال خاصة، فإن الذي أخبرنا بهؤلاء الأعداء هو الله الذي خلقهم وخلقنا، ويعلم ما تكنه صدور العالمين أجمعين، ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠]، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]؟!

اللهم أرنا الحق حقًا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه.



(١) مدارج السالكين: (١ / ٣٤٧).



قواعد قرآنية

(٥٠) قاعدة قرآنية

في النفس والحياة



القاعدة

الثلاثون

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾

هذه قاعدة قرآنية، وقاعدة إيمانية، تمتد جذورها في قلوب الموحدين، في غابر الزمان وحاضره، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ومعنى هذه القاعدة ظاهر بيّن، فإنها تدل على أن من توكل على ربه ومولاه في أمر دينه ودنياه، بأن يعتمد على الله في جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، وفعل ما أمر به من الأسباب، مع كمال الثقة بتسهيل ذلك، وتيسيره ﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أي: كافيه الأمر الذي توكل عليه به^(١).

إن هذه القاعدة القرآنية: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ جاءت في سياق الحديث عن آيات الطلاق في سورة الطلاق، لبيان جملة من المبررات التي تنتظر من طبق شرع الله في أمر الطلاق، فقال ﷺ: ﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجْلُهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ كُم يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ ۚ فَدَجَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢ - ٣].

(١) ينظر: تفسير السعدي (٨٦٩).

وأما مناسبة مجيء هذا المعنى بعد ذكر هذه الأحكام المتعلقة بالطلاق، فلعل السر - والله أعلم - هو تضمينها للتحذير والتطمين!

أما التحذير: فهو متجه لكل واحد من الزوجين اللذين قد تسول له نفسه مجاوزة حدود الله تعالى في أمر الطلاق، سواء فيما يتعلق بالعدة، أو النفقة، أو غير ذلك، خصوصاً وأن النفوس حال الطلاق قد تكون مشحونة، وغير منضبطة في تصرفاتها غالباً، وقد تصرف بما تمليه حالة الغضب، بلا تجرد ولا إنصاف!

وأما التطمين: فهي لمن صدق مع الله في تطبيق شرع ربه في أمر الطلاق، وأنه وإن كيد به أو له، فإن الله معه، وناصره، وحافظ حقه، ودافع كيد من يريد به كيداً، والله أعلم بمراده.

ومع أن هذه القاعدة وردت في سياق آيات الطلاق - كما أسلفت - إلا أن معناها أعم وأشمل من أن يُختصر في هذا الموضوع، وآيات القرآن الكريم طافحة بالحديث عن التوكل، وفضله، والثناء على أهله، وأثره على حياة العبد.

وقبل الإشارة المجملة إلى ذلك: يحسن التذكير بأن النصوص دلت على أن من كمال التوكل فعل الأسباب، وهذا بيّن ظاهر، لكن ينبّه عليه؛ لأن بعض الناس قد يظن - خطأً - أن التوكل يعني تعطيل الأسباب! وهذا غلط بيّن، ومن تأمل قصة موسى عليه السلام لما واجه البحر، وقصة مريم عليها السلام لما ولدت، وغيرهم من الأولياء والصالحين، يجد أنهم جميعاً أمروا بفعل أدنى سبب، فموسى أمر بضرب الحجر، ومريم أمرت بهز الجذع، وما أحسن ما قيل:

«الالتفاتُ إلى الأسباب بالكلية شركٌ منافٍ للتوحيد، وإنكار أن تكون أسباباً بالكلية قدح في الشرع والحكمة، والإعراض عنها - مع العلم بكونها أسباباً - نقصان في العقل، وتنزيلها منازلها ومدافعة بعضها ببعض، وتسليط بعضها على بعض، هو

محض العبودية والمعرفة وإثبات التوحيد والشرع والقدر والحكمة»^(١).

إِنَّ التَّوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ ﷻ مَطْلُوبٌ فِي كُلِّ شَأْنٍ الْحَيَاةِ، بِيَدِ أَنْ هُنَاكَ مَوَاطِنَ كَثِيرَةٌ وَرَدَ فِيهَا الْحُضُّ عَلَى التَّوَكَّلِ وَالْأَمْرُ بِهِ لِلْمُصْطَفَى ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ! وَرِسَائِلُ الْقُرْآنِ تَقُولُ:

«١- إِنْ طَلَبْتُمُ النَّصْرَ وَالْفَرَجَ فَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

٢- إِذَا أَعْرَضْتَ عَنْ أَعْدَائِكَ فَلْيَكُنْ رَفِيقَكَ التَّوَكُّلُ: ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١].

٣- إِذَا أَعْرَضَ عَنْكَ الْخَلْقُ فَتَوَكَّلْ عَلَى رَبِّكَ: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [التوبة: ١٢٩].

٤- إِذَا طَلَبْتَ الصَّلَاحَ وَالْإِصْلَاحَ بَيْنَ قَوْمٍ لَا تَتَوَسَّلُ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا بِالتَّوَكُّلِ: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١].

٥- إِذَا وَصَلْتَ قَوَافِلَ الْقَضَاءِ فَاسْتَقْبِلْهَا بِالتَّوَكُّلِ: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

٦- وَإِذَا نَصَبْتَ الْأَعْدَاءَ حِبَالَاتِ الْمَكْرِ فَادْخُلِ أَنْتَ فِي أَرْضِ التَّوَكُّلِ: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِنَّ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [يونس: ٧١].

٧- وَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ مَرْجِعَ الْكُلِّ إِلَى اللَّهِ وَتَقْدِيرَ الْكُلِّ فِيهَا لِلَّهِ؛ فَوُطِّنْ نَفْسَكَ عَلَى

(١) مدارج السالكين: (١/ ٢٤٤) بتصرف.

فرش التَّوَكَّل: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

٨- وإذا علمت أن الله هو الواحد على الحقيقة، فلا يكن اتِّكالك إلَّا عليه: ﴿قُلْ

هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠].

٩- وإذا كانت الهداية من الله، فاستقبلها بالشكر والتَّوَكَّل: ﴿وَمَا لَنَا إِلَّا

نَتَوَكَّل عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢].

١٠- وإذا خشيت بأس أعداء الله، والشَّيْطَان والغُذَار فلا تلتجئ إلَّا إلى باب

الله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩].

١١- وإذا أردت أن يكون الله وكيلك في كلِّ حال، فتمسَّك بالتَّوَكَّل في كلِّ

حال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١].

١٢- وإذا أردت أن يكون الفردوس الأعلى منزلك فانزل في مقام التَّوَكَّل:

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤٢].

١٣- وإن شئت أن تنال محبة الله فانزل أوَّلًا في مقام التَّوَكَّل: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ

اللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

١٤- وإذا أردت أن يكون الله لك، وتكون لله خالصا فعليك بالتَّوَكَّل: ﴿وَمَنْ

يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾، ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩] ^(١).

وقبل أن نختم حديثنا عن هذه القاعدة القرآنية: أود أن أنبه إلى ما ذكره العلامة

ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ مِنْ أن كثيرًا من المتوكلين يكون مغبونًا في توكله!

(١) جميع ما تقدم من ١ - ١٤ من كلام الإمام اللغوي المفسر الفيروز آبادي رَحِمَهُ اللهُ في كتابه:

«بصائر ذوي التمييز»: (٢/ ٣١٣-٣١٥) باختصار يسير.

وبيان ذلك - كما يقول - : أنك ترى بعض الناس يصرف توكله إلى حاجة جزئية استفرغ فيها قوة توكله، مع أنه يمكنه نيلها بأيسر شيء، وفي المقابل ينسى أو يغفل عن تفرغ قلبه للتوكل في زيادة الإيمان، والعلم، ونصرة الدين، والتأثير في العالم خيراً، فهذا توكل العاجز القاصر الهمة، كما يصرف بعضهم همته وتوكله ودعائه إلى وجع يمكن مداواته بأدنى شيء، أو جوع يمكن زواله بنصف رغيف، أو نصف درهم، ويدع صرفه إلى نصرة الدين، وقمع المبتدعين، وزيادة الإيمان ومصالح المسلمين^(١).

وههنا ملحظ مهم يستفاد من كلامه رَحِمَهُ اللهُ: وهو أن الواحد منا - في حال نشاطه وقوة إيمانه - قد يقع منه نسيان وغفلة عن التوكل على الله؛ اعتماداً على ما في القلب من قوة ونشاط، وهذا غلط ينبغي التنبيه إليه، والحذر منه، ومن تأمل في أدعية النبي ﷺ وجدده دائم الافتقار إلى ربه، ضارعاً إلى ربه أن لا يكله إلى نفسه طرفة عين، حتى ربي أمتّه على هذا المعنى في شيء قد يظنه البعض بسيطاً أو سهلاً، وهو أن يقولوا: «لا حول ولا قوة إلا بالله» عند سماع المؤذن في الحيعلتين!^(٢).

(١) ينظر: مدارج السالكين: (٢/ ٢٢٥) بتصرف.

(٢) أخرجه الشيخان: البخاري ح (٥٨٨) ومسلم ح (٣٨٥)، ولم أشأ أن أستشهد بالحديث الذي رواه أبو داود وابن حبان وغيرهما: من حديث عبد الرحمن بن أبي بكرة أنه قال لأبيهِ ﷺ: يا أبةِ إني أسمعكَ تدعو كلَّ غداةٍ: «اللَّهُمَّ عافني في بدني، اللَّهُمَّ عافني في سمعي، اللَّهُمَّ عافني في بصري، لا إلهَ إلا أنت»، تُعيدُها ثلاثاً حينَ تُصبحُ، وثلاثاً حينَ تُمسي؟ فقال: إني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يدعو بهنَّ، فأنا أحبُّ أن أستنَّ بسُنَّتِهِ. قال عباسٌ فيه: وتقول: «اللَّهُمَّ إني أعوذُ بك من الكفرِ والفقرِ، اللَّهُمَّ إني أعوذُ بك من عذابِ القبرِ، لا إلهَ إلا أنت»، تُعيدُها ثلاثاً حينَ تُصبحُ، وثلاثاً حينَ تُمسي، فتدعو بهنَّ، فأحبُّ أن أستنَّ بسُنَّتِهِ. قال: وقال رسولُ الله ﷺ: «دَعَوَاتُ الْمَكْرُوبِ: اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فلا تَكِلْنِي إلى نفسي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وأصلحْ لي شأني كُلَّهُ، لا إلهَ إلا أنت»؛ لأنَّ إسناده ضعيف، وينظر في تخريجه: مسند أبي داود الطيالسي (٢/ ٢٠٠) ح (٩٠٩، ٩١٠) والله أعلم.

وقد أجمع العلماء على أن التوفيق: ألا يكل الله العبدَ إلى نفسه، وأن الخذلان كل الخذلان: أن يخلي بينه وبين نفسه!

اللهم إنا نبرأ من كل حول وقوة إلا من حولك وقوتك، ونعوذ بك أن نوكل إلى أنفسنا طرفة.

